اليوم رقم 13

بسم الله الرحمن الرحيم

فيما يلي مقدمة عن الفترة المدنية اقتبسناها من كتاب "أحسن القصص"، ومن نفس الكتاب اقتبسنا فقرات كثيرة أثناء حديثنا عن سور اليوم وسنقتبس من الكتاب فقرات عن حديثنا عن السور المدنية بوجه عام.

يثرب

عبارة عن أرض تميل إلى الاستواء النسبي، وسط حمم بركانية شديدة الوعورة، وجبال يزيد ارتفاعها عن 1000 متر عن سطح البحر. ففي الشرق هناك حرة واقم، التي تتصل بحرة شوران التي تحد يثرب من الجنوب مع جبل عير. وتمتد حرة وبرة بطول الجانب الغربي ليثرب. وإلى الشمال من هذه الحرة ممر يجري فيه عدة أودية، يفصل الحرة عن جبل أحد، الذي يحد يثرب من جهة الشمال. والمنطقة الجنوبية الشرقية من أرض يثرب عبارة عن مزارع للنخيل يمتلكها بنو إسرائيل، ويتخللها أودية صغيرة - مثل مهزوز ومذينب - تصب في وادي بطحان الذي يخترق غرب يثرب، متجهاً من الجنوب للشمال نحو الغابة[1]. وفي الأرض المفتوحة ليثرب شمال المزارع وغربها تتناثر منازل الأوس والخزرج بشكل عشوائي. حيث يجتمع كل فخذ قبيلة في مكان واحد، يفصله عن مساكن الآخرين مساحات خالية، كما هو واضح على الخريطة المرفقة. وتبلغ المسافة بين جبل أحد في الشمال وقباء في الجنوب، قرابة 10,000 متر، ولا يزيد امتداد يثرب من الغرب للشرق عن نصف هذه المسافة.

السكان

عندما هاجر رسول الله كان كل سكان يثرب المستقرون فيها نازحون من مناطق تقع في الجزء الجنوبي الغربي من جزيرة العرب، سواءً كانوا من بني إسرائيل أو من الأوس والخزرج. ولا غرابة أن يمتهن بنو إسرائيل زراعة النخيل، لأنهم اعتادوها في موطنهم الأصلي مصر، قبل أن يتركوه بسبب الغزوات الخارجية. أما الأوس والخزرج، فلم يذكر القرآن عنهم شيئاً يمكن أن يدلنا على سبب هجرتهم، ولن نذكر ما يقوله الإخباريون، لأنها أقوال لا يمكن الركون إليها فهي مجرد ظنون. والأزد، التي ينتمي لها الأوس والخزرج، لها تواجد في سلطنة عمان الحالية وفي حجاز

[1] الغابة منطقة مستنقعات تكثر فيها الأشجار البرية تقع إلى الشمال الغربي من يثرب. ويصب فيها العديد من الأودية م ومنها وادي العقيق الذي يقع إلى الغرب من يثرب وخلف حرة وبرة.

جنوب جزيرة العرب وأماكن أخرى، مما يعني أنه قد حدث لأفرادها نزوح جماعي، وتهجير قسري من بلادهم الأصلية، جعلهم يتفرقون في عدة مناطق، وقد يكون الاجتياح الأجنبي هو السبب.

والأوس والخزرج قدموا من مناطق حضرية مستقرة، ويحترفون الزراعة، لأنهم استقروا في يثرب ويعملون في مزارع بني إسرائيل كأجراء. وهذا يقود إلى التساؤل إن كان الأزد هم من سكان مصر، كما بني إسرائيل. وقد هربوا منها مثل بني إسرائيل عندما اجتاحتها الجيوش الغازية بعد زمن موسى، وهو الشتات الأول. فتوجه بعضهم لعمان والبعض لحجاز جنوب الجزيرة والبعض جاء مع بني إسرائيل واستقر في يثرب.

قد نكون مخطئين، ولكن إن كان هذا ما حدث، فهو يفسر سر توافق الأوس والخزرج مع بني إسرائيل في العيش معاً في مكان واحد. ويحتمل أنهم وصلوا يثرب معاً وفي وقت واحد، وعلى شكل عائلة واحدة لرجل اسمه أوس وعائلة أخرى لرجل اسمه خزرج، وثلاث عائلات من بني إسرائيل (قينقاع، نضير، وقريظة)، ثم تزايدت أعدادهم وتكاثروا مع الزمن، حتى وصلوا لبضع مئات لكل من الأوس والخزرج، وعائلات بني إسرائيل، عند هجرة الرسول، وهي زيادة معقولة قياساً بنسبة النمو السكاني المنخفضة في تلك الأزمنة. وتكون يثرب مهجراً لبعض أهل مصر، استقروا فيها ومارسوا حرفتهم الزراعية التي كانوا يجيدونها في بلادهم الأصلية، وأبقوا على لغتهم وأسمائهم وعاداتهم العربية، مع احتفاظ بني إسرائيل بدينهم وتوراتهم العربية، أو بعضها. واحتفاظ الأوس والخزرج بنفس العادات واللغة وعقائدهم اللا- دينية.

وقد أكد القرآن أن رجال دين بني إسرائيل لازالوا يحتفظون ببعض توراتهم عندما بعث محمد: {وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ{43} المائدة.

ولما حدث التهجير الثاني لبني إسرائيل بعد انهيار المملكة التي أسسها داوود، لابد أن بعض بني إسرائيل قد مروا بيثرب واستقر بعضهم فيها، وهؤلاء يمكن التعرف عليهم بأنهم اليهود والنصارى الذين يخاطبهم القرآن. ذلك أن هجرتهم حدثت بعد أن ظهر مذهب ما يسمى باليهودية، وبعد أن خرج منهم من يؤمن بألوهية أحد رجال دينهم أو أنبيائهم واسمه عزير. كما أن الهجرة الثانية حدثت بعدما ظهر مذهب أتباع عيسى ابن مريم، النصارى. وبعد أن خرج منهم من اعتقد

بألوهية عيسى، مع الله ومريم: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ{30} التوبة.

وكان انتشار النصرانية ومن قال بألوهية عزير محدود جداً في غير يثرب، ومع الأيام اضمحلت عقائدهم ولم يعد لها وجود، بسبب ذوبان أهلها في المجتمعات التي عاشوا فيها، بينما بقيت هذه العقائد في يثرب حتى ظهور الإسلام، لأنهم عاشوا في مجتمع إسرائيلي صرف، وإن كان مختلف العقائد. ولأن الأزد لم يكونوا من سكان المملكة التي أسسها داوود، فلم يتعرضوا للتهجير والشتات مرة أخرى عندما انهارت تلك المملكة، مثلما حدث لسكانها من بني إسرائيل. وبالتالي لم يكن هناك موجة ثانية من هجرة الأزد إلى يثرب، كما هو الحال مع بني إسرائيل.

وعندما هاجر الرسول إلى يثرب كانت عائلات بني إسرائيل التي وصلت ليثرب في النزوح الأول هم الأكثر عدداً وقوة وتمكناً من العائلات التي وصلت في الهجرة الثانية التي بقي عدد أفرادها قليل. فالكل يعرف من هم بنو قريظة، والنضير، وقينقاع، لكن قلة يعلمون أن بنو زعورا وبنو ماسلة، على سبيل المثال، كانوا من يهود يثرب في ذلك الوقت. ذلك أن الثلاث قبائل المشهورة، هي التي نزحت أولاً ليثرب برفقة عائلتين من الأزد، بينما بني زعورا وماسلة وغيرهم كانوا ممن نزحوا في المرة الثانية. ومنهم كان اليهود الموحدين واليهود الذين اعتبروا عزير ابن الله، ومنهم النصارى الموحدين والنصارى الذين اعتبروا عيسى وأمه آلهة مع الله. أما القبائل الثلاث الأقدم، بني قينقاع والنضير وقريظة، فيمثلون بني إسرائيل قبل اليهودية والنصرانية، ويحتفظون بتوراتهم التي نزلت على موسى، أو بعضها. وبطبيعة الحال فالأجيال التالية أغلبها ابتعدت عن الدين ولم يتمسك به إلا القلة القليلة: {فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظّاً مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىَ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمُ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ{13} المائدة.

ولابد أن نشير إلى أن بني إسرائيل الذين هاجروا إلى مملكة سليمان في نجران أو أقصى اليمن أو بلاد فارس والخزر أو الشام وبلاد النيل وغيرها، قد انتقلوا لأماكن يتحدث أهلها لغات شتى، ولهم ثقافتهم المختلفة. وحتى لو حاول بنو إسرائيل الاحتفاظ بلغتهم وثقافتهم فلابد أن تتأثر بالبيئة المحيطة. فدخلت ألفاظ وعبارات أجنبية على لغتهم، وأصبحت لغتهم خليط من اللغة الأم واللغات المحلية وتأثرت مخارج الحروف عندهم. ولم تعد لغتهم كما كانت في وطنهم الأصلي كما لم يتحولوا تماماً للتحدث بلغة البلد المحلية، ولكن تولد لديهم لغة هجين، تشبه ما عرف في جنوب أفريقيا باللغة التي تسمى أفريكانا. وهي لغة حديثة يتحدثها المستوطنون البيض في جنوب أفريقيا،

عبارة عن خليط من الهولندية والإنجليزية والألمانية والفرنسية والزولو والسواحلية، ولكنها ليست واحدة من هذه اللغات. ولغة بني إسرائيل الهجين، هي التي سميت العبرية، وفرضت على العالم على أنها أصل لغات الشرق الأوسط كله. لهذا نجد أن ما سمي "العبرية" لغة فيها تشابه مع لغات اليمن، ولغات أخرى، وهي مستمرة بالتغير والتلون وآخر أشكالها ما سمي بالعبرية الحديثة التي ظهرت في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، بالاعتماد على قواعد اللغة العربية.

والمهاجرون منهم الذين اختلطوا بمجتمعات شتى هم الذين أصبحوا يمثلون اليهود، ويتأثر بهم غيرهم من بني إسرائيل. وحل كتابهم المقدس، محل توارة موسى. مع أنه كتاب تاريخي استمروا يضيفون له أحداثهم على مدى أكثر من 1000 عام، كما يقول علماء تاريخ الكتاب المقدس. ولم يعد أحد منهم يتذكر التوراة التي نزلت مرة واحدة على موسى عندما نسخها في الألواح، وكانت مقتصرة على التشريعات الدينية فقط، ولا تتعرض للأحداث التاريخية.

وعندما وصل محمد وصاحبه أبا بكر ليثرب كانت الغالبية العظمى من المسلمين قد سبقتهم إلى هناك، وبقي قلة في مكة. بعضهم التحق بركب المهاجرين فيما بعد، والبعض الآخر بقي في مكة ولم يهاجر أبداً: {إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ{40} براءة.

وقد أوجدت الهجرة بيئة مختلفة لكل من المهاجرين من مكة ولأهل يثرب من الأنصار المسلمين، ومن غير المسلمين على حد سواء. وصاحب ذلك بعض الأحداث والمواقف، بعضها له علاقة بما اعتاده الناس من سلوك، وبعضها فرضه وجود المهاجرين، وبعضها فرضه قيام دولة إسلامية بجوار مواطن بني إسرائيل، إضافة لاستمرار قريش بملاحقة المسلمين وحربهم. فنزلت الآيات المدنية تعالج هذه المشاكل التي صاحبت الهجرة أو ظهرت بسببها، والظروف التي تولدت منها.

وقد تم تقسيم أحداث فترة الدعوة في المدينة إلى ثمان مراحل حسب ملامح سور كل مرحلة، لأن كل مرحلة تتميز بملامح خاصة، وبأحداث خاصة. وسيلاحظ القراء التغير الكبير بين ما تتحدث عنه السور المكية التي تدور غالباً حول دعوة قريش والطلب منها التفكير بالخلق والأمم السابقة، مع قلة في الأحداث، بينما ستبدوا السور المدنية عبارة عن سجل تاريخي حافل بتفاصيل الأحداث.

واليوم سنتناول سور المرحلة الأولى / مرحلة التوطن والاستقرار.

وهي تمثل الأيام الأولى بعد هجرة الرسول للمدينة، وتسبق الاستعداد لحرب قريش، والاحتكاك ببني إسرائيل، وعدد سورها أربع سور، هي: الممتحنة، الحجرات، المجادلة، الجمعة.

والبداية مع سورة الممتحنة:

أول ما نزل في المدينة سورة الممتحنة، وتتحدث عن موضوعين اثنين فقط: موالاة "مسلمة قريش" للمشركين برغم هجرتهم (الآيات:1-9)، ووصول عدد من نساء مكة مهاجرات (الآيات:10-13).

وتبدأ السورة بتكرار تحذير "مسلمة مكة" من الإبقاء على صلة المودة مع مشركي قريش، التي كررتها سور مكية سابقة: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءكُم مِّنَ الْحَقِّ.....

لأن قريش حاربت الإسلام وأخرجت المسلمين والرسول من مكة: {.. يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ...}.

فكانت هجرتهم طلباً لمرضاة الله وهرباً من اضطهاد قريش، فكيف يتعاطف بعض المسلمين مع من يحارب الله ودينه، إن كانوا مؤمنين حقاً: {... أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاء مَرْضَاتِي...{1}.

ولأن "مسلمة قريش" يشعرون في قرارة أنفسهم أن موالاة أعداء الإسلام خيانة، فقد كانوا يوالونهم بالخفاء: {...تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ{1}

وكبراء قريش لو تمكنوا من المسلمين لقذفوهم بشتى أنواع الشتائم، ولأعتدوا عليهم جسدياً، ولأعادوهم للكفر إن استطاعوا: {إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاء وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ{2}.

وحجة "مسلمة قريش" في موالاتهم كفار قريش، أنه تربطهم بهم صلات قربى ونسب. وتناسوا أن الكفر يلغي قرابة النسب، لأن مصير الكافر يوم القيامة سيكون مختلف. فهم ليسوا من المؤمنين وليس المؤمنون منهم، مثلما أن ابن نوح الكافر ليس من أهل نوح ولم يعد ابنا له. وعلاقات القربى تنظيم أسري في الدنيا، لكنها لا تعني أن الابن جزء من والده. فكل إنسان روح

منفصلة ومستقلة عن غيرها، ولن يكون هناك صلة قربى بين الناس يوم القيامة، لانتفاء الحاجة لها: {لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ{3}.

وكان يجب على "مسلمة قريش" إن كانوا مسلمين أن يتأسوا بإبراهيم ومن آمن معه الذين تبرءوا من قومهم وأقاربهم لأنهم استمروا على الكفر وأعلنوا حربهم على دين الله، ومن آمن: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ{4} رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ{5} لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ{6}.

إبراهيم لم يكن معه سوى لوط، عندما كان في قريته، لكنه عندما وصل مكة تزوج وأصبح له عائلة، هم الذين معه.

وإبراهيم وإن دعا لوالده بالهداية إلا أنه لما تبين له أنه عدو لله ولدينه تبرأ منه: {وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأوَّاهٌ حَلِيمٌ{114} براءة.

ولو أن كفار قريش ممن لم يحارب دين الله والمؤمنين، وقبلوا التعايش معهم بسلام، ولكل فريق دينه، فلن ينهاهم الله عن مودتهم والتقرب إليهم. لأن المسلم مأمور بالتعامل مع الناس بكل إنسانية إذا قبلوا التعايش معهم بغض النظر عن المعتقد، ولم يحاربوا الإسلام أو يضيقوا على المسلمين: {عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{7} لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ{8} إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ{9}.

فالنهي الصريح عن موالاة الكفار موجه للمعادين للإسلام، المنكرين للبعث، والذين غضب الله عليهم: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ{13}.

الحدث الثاني الذي تحدثت عنه سورة الممتحنة هو:

وصول مجموعة من نساء مكة مهاجرات ليثرب

المسلمون في مكة بدءوا الهجرة ليثرب قبل رسول الله واستمر تقاطر المهاجرين من مكة حتى بعد هجرة رسول الله. وكان ممن لحق به، مجموعة من النساء، بعضهن أو جميعهن فارقن أزواجهن الكفار في مكة. ويبدوا أن المسلمين ترددوا في قبولهن بينهم، فنزلت الآيات تأمرهم بإخضاعهن لامتحان يكشف إن كن بالفعل مسلمات أو راغبات في الدخول في الإسلام. وهذا الامتحان فرضته الظروف القائمة في تلك الفترة، حيث أن المسلمين للتو وصلوا يثرب وكونوا مجتمعهم المسلم مع إخوانهم ممن أسلم من بني إسرائيل ومن الأوس والخزرج، إلا أن قريش لم تكف عن ملاحقة المسلمين ومحاولة القضاء على الإسلام. لذا كان هناك احتمال أن ترسل قريش بعض النساء ممن يتظاهرن بالإسلام، للتجسس على أحوال المسلمين.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ{10}

وبعد الامتحان، فكل امرأة مسلمة بالفعل أو لديها الرغبة الصادقة بالدخول في الإسلام، يجب قبولها في المجتمع المسلم ولا يجوز بأي حال من الأحوال إعادتها للكفار.

وإن كان بعضهن متزوجات بكفار من قريش، فيجب على المسلمين القيام بما يلي:

يفسخ عقد النكاح، لأنها تحرم على زوجها الكافر، ويحرم عليها.

وبناءً على عدل الإسلام، فإذا فسخ النكاح، فيعاد للزوج الكافر ما دفعه للمرأة كصداق. ويتم تأمين المال عن طريق الإنفاق، أو من بيت المال الذي يغذيه الإنفاق. وتصبح المرأة مطلقة ويمكنها الزواج بأي مسلم تختاره.

كما أمر الرجال المسلمون تطليق زوجاتهم القرشيات الكافرات، وإلحاقهن بأهلهن، ولا يجوز للمسلم أن يبقي على زوجه الكافر: " وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ".

وإذا ما سرح المسلم زوجته الكافر، فله الحق بالمطالبة باسترداد ما دفعه لها من صداق، كما للزوج الكافر الحق باسترداد صداقه: " وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ{10}".

في حال سرح رجل مسلم زوجته الكافر، ولم تعد لـه زوجتـه أو أهلهـا صـداقه، فعلـى المسلمين أن يعوضوه بقيمة مماثلة، من بيت المال الذي يغذيه الإنفاق: وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ{11}

والمهاجرات الجدد يلزمهن المبايعة للدخول في الإسلام. والمبايعة لا تعني نطق الشهادتين في جو احتفالي وتكبير وعرض مسرحي، كما يحدث الآن، ولكنها تتمثل بقطع العهد علـى النفس أمـام الله أنها لا تشرك بالله شيئاً (كإتباع تشريعات غير تشريعاته سبحانه) ولا تسرق، ولا تزنـي، ولا تقتل أولادهـا، ولا تكـذب، ولا تعص الرسـول فـي كـل معـروف: {يَـا أَيُّهَـا النَّبِـيُّ إِذَا جَـاءكَ الْمُؤْمِنَـاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَـى أَن لَّا يُشْـرِكْنَ بِـاللَّهِ شَـيْئاً وَلَا يَسْـرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَـأْتِينَ بِبُهْتَـانٍ يَفْتَرِينَـهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِـي مَعْرُوفٍ فَبَـايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{12}.

وهذا لا يعني أنه يمكن للمسلمة الجديدة أو المسلم أن لا يتبع بقية أوامر القرآن وينتهي عن نواهيه الأخرى.

وتختم السورة بتكرار تحذير "مسلمة قريش" من موالاة أقاربهم المشركين من قريش: يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ{13}.

ثم نزلت سورة الحجرات

وتبدأ السورة بقوله تعالى: {يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ{1} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَـهُ بِـالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـالُكُمْ وَأَنـتُمْ لَا تَشْعُرُونَ{2} إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ{3} إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَـكَ مِن وَرَاء الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ{4} وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّـى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَـانَ خَيْراً لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{5}.

الآيات تقول أنه ما أن وصل رسول الله إلى المدينة حتى تقاطر عليه مجموعات من رجـال البادية الـذين كـانوا يتـدافعون فـي المجلـس بطريقـة فظـة بعيـدة عـن التهـذيب، ويتسـابقون علـى أمـاكن الجلوس، ويجلسون بأي طريقة أو هيئة ممكنة. وكانوا يتحدثون بأصوات جهورية عالية، وبشكل

جماعي – ولا زال هذا السلوك يمارس من قبل الكثير من سكان جزيرة العرب – لدرجة يبدوا الجلوس وكأنهم يتحدثون جميعاً في وقت واحد، ولا أحد يستمع لما يقال.

كما أظهرت جموع البادية عدم مراعاة للخصوصيات الشخصية، والقيام بإزعاج الآخرين في أوقات غير مناسبة. ذلك أنه إذا ما قدم أحدهم ولم يجد الرسول، فإنه يتوجه لبيته وينادي بصوت عالٍ أجش، دون مراعاة لخصوصية الرسول أو حريته الشخصية، ودون أن يكلف نفسه قرع الباب بهدوء فإن أجيب وإلا انصرف، بل كانوا يصرخون منادين بأصوات عالية في أوقات الراحة والنوم.

وهو تصرف لازال حياً بيننا.

فمن غير المستهجن أن يتوقف صاحب الحاجة بسيارته أمام باب صاحب البيت ويطلق مزمار سيارته بكل قوة لكي ينبه من في البيت أن هناك شخص في الخارج يريد التحدث إليهم، دون مراعاة لما يسببه من إزعاج لأهل البيت والبيوت المجاورة والمارة. وتصرفات أخرى لا حصر لها سيتذكرها القارئ أثناء قراءة هذه الأسطر.

والرسول كان يجلس معظم الوقت مع الناس، ولا يدخل بيته إلا في أوقات الأكل والشرب والراحة، والنوم. وهذه الآيات تتحدث عن أن الرسول فوجئ بهذه التصرفات الرعناء التي نزلت الآيات لتهذيبها: وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{5}.

وفي هذه الفترة المبكرة من العصر المدني سعى أحد الأشخاص بوشاية بين مجموعتين عرقيتين من المسلمين - دون ذكر من كانوا – فحدث شجار ومشاحنات بينهم بسبب ذلك: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ{6} وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ{7} فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ{8}.

واستمرت الآيات لتبين كيف يتم حسم الخلاف: {وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ{9} إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ{10}.

ونستطيع القول أن النزاع كان بين "مسلمة قريش"والمستضعفين، وهو عبارة عن تجدد النزاع بينهما الذي سبق وحدث مراراً في مكة قبل الهجرة، وذكرته سور مكية مررنا بها، كما في سورة بني إسرائيل: {وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوّاً مُّبِيناً{53}.

وتستمر الآيات تحدثنا عن بعض تطورات ما حدث في تلك المشاحنات: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ{11} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ{12} يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ{13}.

والآيات تخبرنا أن سبب الاقتتال كان وشاية قام بها شخص بين الفريقين: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ{6}.

والوشاية لها علاقة بالتفاخر بالأنساب، لأن الآيات تُذكّر المتقاتلين أن انتسابهم لقبيلة معينة لا يعني أنهم خير من أفراد الفريق الآخر، الذي يبدوا أنه ليس لهم نسب: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ{13}. فالكريم عند الله ليس سليل النسب كقريش، بل التقي ولو لم يكن له قبيلة (المقصود العبيد والموالي). والتأكيد على أن النسب أو اللون ليس هو المعيار الذي يقسم الناس إلى كريم ولئيم، ولكن التقوى هي معيار الكريم عند الله. والكريم هنا من الكرامة وليس من البذل والعطاء. لأن مسلمي قريش تفاخروا بنبل نسبهم ووصفوا الفريق المقابل بأنهم عبيد وموالي أذلاء.

ولا عبرة لما ذكر في كتب السير والتاريخ التي كتبت بإشراف قريش والتي تقول أن يهودياً قد ذكر واقعة حدثت بين الأوس والخزرج قبل الإسلام، فبدأ كل فريق يعيب على الفريق الآخر، وتطور الوضع للاشتباك ودُقت طبول الحرب بينهما. إذ لو كان الشجار بين الأوس والخزرج، فلن يكون السبب هو تفاخر فريق على آخر بالنسب، لأنهم ينتمون لقبيلة واحدة هي الأزد. وبالتالي يمكننا القول أن "مسلمة قريش" والمسلمين من عبيد وموالي قريش قد تكررت بينهم

الشحناء الذي كان في مكة. وتبادل الفريقان الشتائم والتنابز بالألقاب، ثم تطور الوضع للاقتتال، بسبب نقل شخص لأحد الفريقين كلاماً قاله عنهم الفريق الآخر.

وتبين الآيات أن المشاحنات لم تقتصر على الرجال بل اشتركت فيها النساء من الفريقين، وتبادلن الشتائم والسخرية: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ{11}

وتنهى الآيات المؤمنين من نقل الوشاية: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ{12}.

ثم تعود بقية آيات السورة للحديث عن الأعراب الذي بدأت السورة بالحديث عنهم وبعض تصرفاتهم الرعناء: قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{14} إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ{15} قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ{16} يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{17} إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ{18}.

وقد قدم الأعراب على الرسول حال سماعهم أنه وصل يثرب، ظناً منهم أنه يحمل المتاع والمال، لعله يصيبهم شيئاً منها. ولم يكن دافعهم التفقه بالدين، لأن الإيمان لن يدخل قلوبهم لا في ذلك الوقت ولا في أي وقت قادم ولا في آخر أيام رسول الله.

والذين قدموا على الرسول كانوا يرددون على مسامعه أنهم مؤمنون برسالته بطريقة مُلِحَّةٌ ظناً منهم أنها ستجعله يغدق عليهم الهبات. فنزلت الآيات تقول لهم أن أمرهم يعلمه الله، وأن إعلانهم الإسلام بألسنتهم، لا يعني أنهم بالفعل يؤمنون به: {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{14}.

وأولئك الأعراب كانوا يكررون على مسامع الرسول دون كلل تذكيره بأنهم دخلوا في الإسلام، لتوصيل فكرة أن لهم على الرسول معروف ومنّة، بسبب دخولهم الإسلام، وأن عليه أن يدفع لهم

مقابل ذلك. وإسلامهم ليس منة على محمد، ولكنه منةٌ من الله عليهم أن اهتدوا للإيمان - لو كانوا بالفعل يؤمنون بالإسلام: {يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{17} إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ{18}.

وتبين لهم الآيات أن الإيمان لا يكون بإعلان المرء نفسه مؤمناً، ولكن يحتاج للاعتقاد الصادق بوحدانية الله والإيمان باليوم الآخر إضافة للأعمال الصالحة المطلوبة في تلك الفترة: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ{15} قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ{16}.

والآيات تبين بعض طبائع الأعراب، المتمثلة بالتذكير بأي فعل قاموا به على أنه منة ومعروف للشخص المقابل، ولو لم يكن كذلك، كنوع من الابتزاز، لكي يتسنى لهم طلب مقابل مادي له. لأن المقابل المادي هو مقياس الولاء عندهم، دون أي اعتبار للمبادئ، وهو ما سنلاحظه في سورة المجادلة التي تلت في النزول هذه السورة.

سورة المجادلة

السورة تتحدث عن ثلاثة مواضيع، هي:

الظهار.

مسلمة مكة الذين يتناجون فيما بينهم على معصية ما يسمعون من الرسول، وعن موالاتهم للمشركين.

الأعراب.

(الآيات:1-4): قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ{1} الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَراً مِّنَ الْقَوْلِ وَزُوراً وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ{2} وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ{3} فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ{4}.

تبدأ سورة المجادلة بالحديث عن عادة الظهار التي كانت منتشرة بين الناس في ذلك العصر: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ{1} الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَراً مِّنَ الْقَوْلِ وَزُوراً وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ{2} وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ{3} فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ{4}.

والظهار يتمثل بأن يقول الزوج لزوجته أنت علي كظهر أمي. أي أنها حرام عليه كحرمة أمه. فتبقى المرأة محرمة على زوجها، لا يقاسمها الفراش ولكنه لا يطلقها، فهي ممارسات اجتماعية مهينة للزوجات. للأسف لازالت سارية (تحت مسمى إسقاط حقوق الزوجة) بمباركة المحاكم، برغم تحريم القرآن لها.

وقد ظاهر أحد المسلمين زوجته، فجاءت الزوجة تخبر الرسول بما حدث، وتشتكي إلى الله وضعها. فنزلت هذه الآيات لتقول أنه حتى لو قلتم أن زوجاتكم كأمهاتكم فلن يكن كذلك، وستبقى الأم هي التي ولدتك، ولن تكون الزوجة أما، أي لن تحرم عليكم كحرمة أمهاتكم.

ويكون على كل من ظاهر زوجته كفارة تتمثل بتحرير رقبة، ولا تحل له زوجته قبل الكفارة. وهذه الكفارة رادع للرجال من أن يظاهروا زوجاتهم، وفي نفس الوقت وسيلة لتحرير عدد من الرقيق.

ومن لم يجد المال الكافي لتحرير رقبة أو أنه لم يجد رقيقاً ليحررهم، فعليه أن يصوم شهرين متتابعين قبل أن تحل له زوجته. فمن لم يستطع، فعليه إطعام ستين مسكيناً. وقد جاء التأكيد مرة أخرى أن تلفظ الرجل بالظهار لا يجعل الزوجة أما له أو تحرم عليه كأمه، وذلك في سورة الأحزاب " وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ".

والعمل على تحرير الرق بدأ مع بداية الدعوة الإسلامية في مكة، وفي أيامها الأولى وقبل فرض العبادات أو التشريعات المختلفة. فقد أمر المسلمون بتحرير الرقيق في سورة البلد، إحدى سور المرحلة الأولى للدعوة في مكة: "وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ. فَكُّ رَقَبَةٍ. أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ".

وجاء التأكيد على تحرير الرق في هذه السورة المجادلة ككفارة للظهار.

ثم جاء تحرير الرق ككفارة لليمين في الآية 89 من سورة المائدة {لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَـكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُواْ أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ }المائدة89

وكفارة للقتل الخطأ كما ورد في الآية 92 من سورة النساء: " وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاَّ خَطَئاً وَمَن قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَئاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُواْ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مْؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةً فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللّهِ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً".

ولو عمل بهذه التشريعات بعد وفاة الرسول لما بقي رقيق واحد في دولة الإسلام، ولن يعرف المسلمون الرق بعد ذلك. لكن الناس نبذوا كلام الله وراء ظهورهم، واستمروا باسترقاق غيرهم من الأسرى المقاتلين، و خطف الآمنين.

ونعود لسورة المجادلة

(الآيات: 5-10) تتوعد "مسلمة مكة" على موالاتهم للمشركين، ومنازعتهم للمستضعفين: إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ{5} يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ{6} أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ{7} أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاؤُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ{8} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ{9} إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ{10}.

في هذه الأيام الأولى للرسول في المدينة لم يكن قد وقع بينه وبين بني إسرائيل أي احتكاك، لذا فلا يمكن أن يكونوا هم من تتحدث عنهم الآيات. ولأنه لم يحاد الله غيرهم حتى تلك اللحظة سوى

"مسلمة قريش" الذين أبقوا على موالاتهم لمشركي مكة، فهم من حاد الله ورسوله. وهذه الآيات تحذرهم بشدة، من عذاب الله وتصفهم بالكفر.

وتخبرنا أنهم كانوا يجتمعون سراً ويتناجون بمخالفة وعصيان ما يسمعون من الرسول (أي ما ينزل بحقهم في القرآن) ومن ذلك التوقف الفوري عن موالاة الكفار بلا رجعة وعدم الدخول مع المستضعفين في مشادات عنصرية مقيتة. ويبدوا أنهم بالفعل يتناجون للإضرار بالمستضعفين الذين تطمئنهم الآية 10: "لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ".

(الآيات: 11-13) عود للحديث عن الأعراب وبعض تصرفاتهم: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ{11} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{12} أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ{13}.

الآيات تتحدث عن سلوك آخر غير مقبول من الأعراب، ذلك أنهم إذا حضروا مجلس الرسول كانوا يتسابقون على احتلال الأماكن قبل غيرهم بشكل أرعن، ويجلسون بطريقة فوضوية، تحرم غيرهم من إيجاد مكان للجلوس. إضافة إلى أنهم كانوا يطيلون الجلوس بعد إعلان انتهاء الاجتماع وفض الجلسة: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ{11}.

والآيات تعطي درساً في اللباقة والكياسة وأدب الجلوس والاجتماع. والمتضمن الدخول لمكان الاجتماع بكل أدب وهدوء، والجلوس في أي مكان خال بطريقة منتظمة ومنضبطة، تجعل المكان يتسع لأكبر قدر ممكن من الناس، وبعيداً عن الفوضى التي تضيع المساحات.

وعندما ترفع الجلسة وينتهي الاجتماع، ينهض الجميع وينصرفوا بكل هدوء وانتظام، ولا يتخلف أحد في المجلس لئلا يحرم صاحبه من وقت راحته.

ومن الآداب التي كان يجب أن يتحلوا بها، تقديم هدية ولو كانت بسيطة جداً للرسول عندما يحضرون لأول مرة. وهو سلوك حضاري، يحرص عليه من يتقيد بأصول اللباقة. فعندما نزور

بيتاً للمرة الأولى علينا أن نقدم هدية رمزية، ولا نذهب بيد فارغة. وهي عادة منتشرة في المجتمعات الغربية اليوم أكثر منها في المجتمعات المسلمة: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{12} أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ{13}.

والآية 12 تخاطب المسلمين بوجه عام عن ضرورة التحلي بهذه اللباقة، خاصة أن مجلس الرسول عامر بهم طوال الوقت وسيستفيدون هم مما يقدمون ولن يختص به الرسول. فلو قدم بعضهم طعام وبعضهم شراب، فسيتناوله من يحضر مجلس الرسول، وليس الرسول. خاصة انه عليه الصلاة والسلام في تلك الأيام لم يتزوج، وقد تكون أحواله المادية شحيحة لا تعينه على تقديم واجب الضيافة لمستمعيه، كونه وصل مهاجراً منذ أيام.

والآية 13 تخاطب الأعراب: "أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات"، وتشير إلى أنهم لم يقدموا شيئاً، وأن الله لن يطالبهم بها في المرات القادمة لأنها ليست في قاموس تصرفاتهم ولم يعتادوها. ولئلا يفهم منها أنها إتاوة تدفع للرسول كشرط لحضور مجلسه.

(الآيات:14-22) تواصل وعيد "مسلمة قريش" الذي بدأته في الآيات:5-10 : أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ{14} أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً إِنَّهُمْ سَاء مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ{15} اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ{16} لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئاً أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ{17} يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ{18} اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ{19} إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ{20} كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ{21} لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ{22}.

من يوالي الكفار ولو كانوا أقارب لهم - كما هو الحال مع مسلمة قريش – فهو كافر مثلهم ولو شهد بالوحدانية وصلى وصام وأدى بقية الأوامر الدينية وانتهى عما نهاه القرآن عنه. فالدين كل لا يتجزأ. وموالاة الكفار كبيرة افصرار عليها موجب للخلود في النار.

وتختم السورة بوعد للمؤمنين بالجنة (المقصود هنا هم من أسلم من قريش وحسن إسلامه ولم يوال المشركين).

ثم نزلت سورة الجمعة، وهي آخر سورة في هذه المرحلة وفي جدولنا اليوم، وتتناول موضوعين (حادثتين):

مخاطبة من لم يؤمن برسالة محمد من بني إسرائيل يثرب، وهم الغالبية، وخروج بعض المسلمين من مسجد رسول الله أثناء تأدية الصلاة.

(الآيات:1-8): يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ{1} هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ{2} وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ{3} ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ{4} مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ{5} قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاء لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{6} وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ{7} قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ{8}.

سورة الجمعة أول سورة مدنية تخاطب بني إسرائيل، الذين سمعوا بدعوة محمد منذ سنوات. وسافر البعض منهم وقابلوه وآمنوا به ونقلوا لغيرهم ما يدعوا له. وقد خاطبتهم سور مكية كثيرة، كما سبق ورأينا. والجمعة تخاطب من أعرض عن الإسلام منهم، وهم الغالبية. معللين ومبررين ذلك بأن محمداً ليس من بني إسرائيل، وحتى لو كان رسولاً من الله فهو للأميين. أما هم فأحباء الله من دون الناس جميعاً، الذي خصهم بديانة موسى، ولن يتبعوا رسولاً غيره.

فجاءت بداية السورة لتقول لهم أن الهداية ليست قصراً على قبيلة أو جنس أو شعب دون آخر، وأن الله سبحانه قد شمل برحمته قريش، أو الأميين، كما يسميهم بنو إسرائيل، وأرسل لهم رسولاً منهم ليزكيهم ويهديهم سبيل الرشاد: {يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ{1} هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ

الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ{2} وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ{3} ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ{4}.

وتواصل السورة مخاطبة بني إسرائيل ومشبهة إياهم بالحمار الذي يحمل الأسفار والكتب على ظهره ولا يستفيد من العلم الذي تحويه، كونهم لم يحملوا أمانة ما ورد في توارة موسى وتركوا العمل بها: {مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ{5}.

وتستمر السورة قائلة، إن كنتم تظنون أنكم أولياء الله وأحباؤه من بين البشر، فلماذا لا تتمنوا الموت لتسارعوا للقاء ربكم: {قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاء لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{6}.

وتؤكد السورة أنهم يكرهون الموت لأنهم لا يطمئنون لمصيرهم يوم القيامة: {وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ{7} قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ{8}.

وتظهر الآيات أن غالبية أهل الكتاب في يثرب أعلنوا موقفهم الرافض للإسلام منذ الأيام الأولى لهجرة محمد، وكسنة متبعة: فمن يعلن الكفر في البداية لن يؤمن أبداً مهما دعي.

(الآيات:9-11): يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ{9} فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ{10} وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ{11}.

الآيات تبدأ بفرض قانون (تشريع) بوجوب ترك البيع والشراء بعد سماع أذان الصلاة في يوم الجمعة. وسبب هذا التشريع يعود إلى أنه فيما كان الرسول يؤم المصلين في يوم جمعة، من الأيام الأولى للهجرة، ترك بعض المأمومين صلاتهم، وتسابقوا للحاق بقافلة وصلت للتو للحصول منها على ما يحتاجون من متاع. (الآية لم تذكر القافلة حرفياً، لكن السياق يوحي بحضور القافلة وقت الصلاة وهو الذي جعل البعض يتراكضون لاستقبالها): يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ{9}.

والاحتمال الأكثر أن من خرج من المسجد وترك الصلاة كانوا من مسلمي يثرب، وليس من المهاجرين. ذلك أن المهاجرين صلوا مع رسول الله مدة طويلة وعرفوا أهمية الصلاة، لأن الآيات التي تحث على المواظبة على الصلاة وأدائها بخشوع قد نزلت بينهم في مكة: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ{1} الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ{2}... وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ{9} المؤمنون.

أما مسلمو يثرب فقد دخل بعضهم الإسلام بلقاء واحد مع الرسول، وعاد ليثرب، والبعض الآخر دخلوا الإسلام عن طريق شخص قابل الرسول، لكنهم هم لم يروه أو يجتمعوا به في مكة. وتكون معرفتهم بتفاصيل الدين، ومنها الصلاة، قليلة.

وتسابقهم على القافلة كون من فاته الحصول على ما يحتاج منها، فقد يبقى زمناً طويلاً قبل أن تأتي قافلة أخرى، أو يضطر لدفع مقابل مادي أكبر للحصول على ما يريد ممن حصل عليها من القافلة قبله. فجاءت سورة الجمعة لتقول لهم أن ضياع أجر الدنيا لا يقارن بضياع أجر الآخرة، وأن التجارة الرابحة هي ضمان الجنة: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ{9} فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ{10} وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ{11}.

والآيات تشير إلى أن هناك سوق تجارية تقام يوم الجمعة في يثرب، وبالقرب من مسجد الرسول " رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ".

وبهذا نكون قد وصلنا إلى نهاية برنامجنا اليوم، ولنا لقاء بإذن الله في اليوم رقم 14.

والسلام عليكم

ابن قرناس